المحاضرة (٢):

مظاهر تطور النثر العربي الحديث:

عملت هذه العوامل التي كلمنا عليها مجتمعة على إحداث تغييرات بارزة وآثار عظيمة، جعلت النثر ينهض ويتجاوز الضعف والرود اللذين خيما عليه فترة طويلة من الزمن، مِمّا أسفر عن نهضة شاملة أصابت النثر العربي الحديث.

وواضح أن هذا التطور لم يحدث في النثر سريعاً بين عشية وضحاها، بل جرى بصورة تدريجية وبمرور الزمن، وبقوة هذه العوامل التي باتت خصائص ومظاهر جديدة لم تكون موجودة من قبل، تبرز فيه بوضوح.

وعلى العموم مثلت هذه الخصائص والمظاهر في لغة النثر وفي موضوعاته وفنونه.

١- اللغة:

مذ بدأت الثقافة العربية تركد على أثر ضعف الدولة العربية الإسلامية، أخذت لغة الأدب العربي تميل إلى التكلف والتعقيد اللفظي وتعي بالزخارف والمُحسنات الشكلية، كالسجع والبديع، على حساب المعنى والفكر، حتى صارت اللغة لغة ثقيلة جامدة، تحفل بضروب من التعقيد والتكلف، وتخلوا في الوقت ذاته من المشاعر والأفكار، وتقوم هوّة شاسعة بينها وبين لغة الحياة.

بيد أن ظهور جمهرة من المفكرين والسياسيين والمصلحين الاجتماعيين والدينيين والمترجمين، وانتشار التعليم والصحف، أخذ يُعين على انتشار لغة تختلف كل الاختلاف عن هذه اللغة، وأسلوب جديد هو الأسلوب نفسه الذي شاع خلال العصر الذهبي للثقافة العربي، أعني الأسلوب السهل المرسل والفصيح.

فالعناية غدّت تنصب على المضمون بعد أن صار عند الأدباء معين ثر من الأفكار والمعاني يريدون إيصالها إلى القراء، وإذا بدأت كفة المضمون ترجح، كان ذلك إيذاناً بزوال دولة السجع والبديع والزخارف اللفظية، من أجل ذلك صار الأسلوب يميل إلى السهولة والوضوح ويبتعد عن كل ضروب التعقيد، ويهجر السجع والبديع وكل ما يمت إليهما بصلة.

لكن هذا لم يجر سهلاً دون عوائق، ولم يأت عند الأدباء جميعاً في وقت واحد، فقد جرت معارك وخصومات عنيفة بين المجددين والمحافظين، كانت معركة الأسلوب أقوى وأشد هذه المعارك، والأسلوب- كما رأينا- بدأ تقليداً حفياً بالسجع والزخرف، ثم تحرر من المحسنات اللفظية والبديع، واتجه إلى العناية بالمضمون، وذلك حين اتصل بالنفس والحياة واهتم بالتحليل

ثم انتهى ذلك اللون التقليدي من الكتابة القائم على السجع والمجاز والاستعارة والزخرف. فقد صار الكاتب يكتب لصور تجربة نفسه أو يقول شيئاً محدداً[1].

ففي بدايات النهضة ظلّ الأسلوب المسجوع الزخرف سائداً في كتابات الأدباء والمترجمين أمثل رفاعة الطهطاوي وتلاميذه، فالطهطاوي ، وإن كان من أعلام النهضة والتجديد، استخدم الأسلوب المسجوع في كتابته وترجماته الأولى، جاء في إحدى ترجماته "لم يتول قلب ملك من تلك العصابة، ولا ساواه غيره في تربية الرعيّة بهذه المثابة، فالفخار شعاره، والمجد دثاره، وكان احظى الملوك باكتساب الطاعة من رعاياه والانقياد، كما كان أعظمهم في الهيبة عند الأخدان ولأضاد، وربما كان دونهم في ميل الرعية إليه ومحبتهم له بانعطاف القلوب عليه، فطالما رأيناه تتقلب عليه صروف الزمان وتتلاعب به حوادث الحدثان، وهو عند النصر يظهر الفخار، ويتجلد عند الهزيمة ولا يظهر بمظهر الذل والانكسار فقد أرهب عنده عشرين أمّة عليه تعصبت، وعلى قتاله تحالفت وتحزبت، وبالجملة فهو أعظم الملوك في حياته، كما كان عظيم العبرة عند مَماته..".

على أن أسلوب الطهطاوي في كتبه الأخيرة، تغيّر فأصبح أسلوباً مرسلاً، قلّ فيه السجع والزخارف اللفظية، يقول في كتابه (المرشد الأمين للبنات والبنين) المطبوع في عام ١٨٧٣ محدثاً عن تعليم المرأة "ينبغي صرف الهمة في تعليم البنات والصبيان معاً... فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك، فإن هذا يزيدهن أدباً وعقلاً ويجعلهن بالمعارف أهلاً ويصلحن به لمشاركة الرجال في الكلام والرأي، فيعظمن في قلوبهم ويعظم مقامهن، وليُمكّن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها، فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة، فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل السنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء، وافتعال الأقاويل، فالفعل يصون المرأة عمّا لا يليق ويقربها من الفضيلة، وإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال، فهي مذمّة عظيمة في حق النساء...".

وهذا لا يعني أن العناية بالشكل في الأسلوب قد انتهت كُلياً، في النثر العربي الحديث، فقد ظلّ هناك أدباء يعنون في أسلوبهم، بالجانب الشكلي، لكن دون أن يأتي ذلك على حساب

---

[1] المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاصر في مائة عام: أنور الجندي، ص٨٤٩.

المضمون، أمثال مصطفى لطفي المنفلوطي وصادق الرافعي وأحمد حسن الزيات وطه حسين وغيرهم.

إن الغالبية من الأدباء مالت إلى البساطة والإيجاز والبعد عن التأنق، بكل أنواعه في الجوانب الشكلية، حتى يكون ما يكتبونه مفهوماً عند الجميع، فالأدباء والمُترجمون لم يرجعوا إلى الأسلوب القديم الفصيح أو الأسلوب المرسل الحر حسب، بل أخذوا يبسطون أسلوبهم تبسيطاً لا ينزل به إلى مستوى العامة أو إلى الابتذال وفي الوقت ذاته لا يعلو عليهم بحيث يشعرون بشيءٍ من العسر في قراءته وفهمه، أنه أسلوب بسيط سهل، لكنه عربي فصيح[1].

الموضوعات:

تمثل المظهر الثاني من مظاهر تطور النثر العربي الحديث في تطور وتغيّر موضوعات النثر، إذ كثرت هذه الموضوعات وتعددت وتنوعت.

كانت موضوعات النثر العربي خلال ما يسمى بالعصر الوسيط موضوعات محددة وساذجة لا أهمية لها، وهي موضوعات شخصية لا تكاد تتجاوز موضوعات الشعر من تهنئة بفتح أو ظفر، ومن تعزية أو وصف...الخ.

لكن الأدباء والكُتاب منذ منتصف القرن التاسع عشر أخذوا، نتيجة لليقظة السياسية وانتشار الصحف، يحلون محل الموضوعات القديمة والمحدودة موضوعات عامة، أي انهم أحلوا الأمة محل الأفراد، فلم يعد الكاتب يتوجه بكتاباته إلى شخص معين، بل أصبح يتوجه إلى طبقات الأمة على اختلاف درجاتها، معنى ذلك أن لأديب صار أديباً ديمقراطياً، بعد أن كان أرستقراطياً يوجه حديثه إلى أرستقراطيين من أمراء ووزراء وغيرهم لينال مُكافآتهم وجوائزهم.

إن النثر صار يسعى إلى محيط أوسع، هو محيط الشعب الذي يكسب عيشه منه مباشرة بما ينشر من الكتب وبما يكتب في الصحف، وقد نتج عن ذلك ثلاثة أمور:

١- أن الكاتب الحديث لم يعد عبداً لأشخاص بعينهم، أو لهذا الأمير أو هذا الوزير، بل ردّت إليه حريته، فهو يكتب كما يريد، لا كما يريد له الأمراء والوزراء، يكتب آراءه وأفكاره كما أحس بها.

---

[1] الأدب العربي المعاصر في مصر: شوقي ضيف، ص١٧٦.

٢- أن الكاتب تحول إلى الجماعة الكبرى، جماعة الأمة، لذلك راح يرضي هذه الجماعة وشعورها وذوقها، مِمّا كان سبباً في نشوء رأي أدبي عام يعلن رضاه وسخطه على حياتنا الأدبية.

٢- صار الأدب يُعنى بتصوير ميول الجماعة السياسية لأن الأدباء تحولوا إلى الجماعة يخاطبونها ويقدمون أدبهم إليها فكان لابدّ أن يخاطبونها في شؤونها العامة التي تهمها وحياتها التي تعيشها[١].

حدث هذا التطور في النثر أولاً في مصر في عهد إسماعيل، لأن العوامل التي أدّت إلى ذلك برزت في مصر أقوى منها في غيرها، من هنا نجد موضوعات هذا النثر تصبح واسعة ومختلفة، وتتناول مشكلات الحياة وما يهم الشعوب وما يبعث على اليقظة والنهضة ولعلّ أهمها:

١- الدفاع عن الأمة والدعوة إلى تحريرها من العبودية والعسف، والمطالبة بحقوقها المختلفة، والتنديد بالحُكام الظالمين، برز مثل هذا الموضوع عند المصلحين أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وغيرهما، قال محمد عبده يحرض على خلع نير العبودية:

"إن الأمة التي ليس لها في شؤونها حل ولا عقد، ولا تستشار في مصالحها ولا أثر لإرادتها في منافعة العمومية، وإنما هي خاضعة لحاكم واجد، أرادته قانون ومشئيته نظام، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، فتلك أمة، لا تثبت على حالٍ واحدٍ، ولا ينضبط لها سير، فتعتورها السعادة والشقاء ويتداولها العلم والجهل، ويتبادل عليها الغنى والفقر ويتناوبها العز والذل، وكل ما يعرض عليها من هذه الأحوال خيرها وشرها، فهو تابع لحال الحاكم، فإن كان حاكمها عالماً حازماً أصيل الرأي علي الهمة، رفيع المقصد، قويم الطبع ساس الأمة بسياسة العد ورفعة فيها منار العلم، ومهد لها طريق اليسار والثروة، وفتح لها أبواباً للتفنن في الصنائع والحذق في جميع لوازم الحياة، وبعث في أفراد المحكومين روح الشرف والنخوة وحملهم على التجلي بالمزايا الشريفة من الشهامة والشجاعة، وإباء الضيم والأنفة من الذل ورفعهم إلى مكانة عُليا من العزة، ووطأ لهم سبل الراحة والرفاهية وتقدم بهم إلى كل وجهة من وجوه الخير، وإن كان حاكمها جاهلاً، سيء الطبع، سافل الهمّة، جباناً، ضعيف الرأي، أحمق الجنان، خسيس النفس، مُعوّج الطبيعة، أسقط الأمة بتصرفه إلى مهاوي الخسران، وضرب على نواظرها غشاوات الجهل، وجلب عليها غائلة الفاقة والفقر، وجار في سلطته عن جادة العدل، وفتح أبواباً للعدوان فيتغلب القوي على حقوق الضعيف ويختل النظام وتفسد الأخلاق وتخفض الكلمة ويغلب البأس، فتمتد إليها أنظار

[١] المصدر السابق، ص١٧٧-١٧٨.

الطامعين، وتضرب الدول بمخالبها في أحشاء الأمة، عند ذلك إن كان في الأمة رمق من الحياة، وبقيت فيه بقية منها وأراد الله بها خيراً، اجتمع أهل الرأي وأرباب الهمّة من أفرادها وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة واستئصال جذورها، قبل أن تنشر الرياح بذورها أو أجزاءها السامة القاتلة بين جموع الأمة وينقطع الأمل من العلاج".

٢- الدعوة إلى ألأخذ بنظام الشورى في الحكم حتى تشعر الأمة أن مُقدّراتها بيدها وحتى تأمن جانب حجة يتكئون عليها في إشرافهم على الحكومة وإدارتها، ظهر هذا الاتجاه عند أغلب المفكرين والمصلحين وبعض الأدباء أمثال الأفغاني ومحمد عبده وعبد الله النديم وأديب إسحاق والبارودي، كتب محمد عبده ثلاث مقالات في الشورى ووجوب الأخذ بالنظام النيابي، ومِمّا قاله في إحداها:

" معلوم أن الشرع لم يجيء ببيان كيفية مخصوصة لمناصحة الحكام ولا طريقة معروفة للشورى عليهم، كما لم يمنع كيفية من كيفياتها الموجبة لبلوغ المراد منها. فالشورى واجب شرعي، وكيفية إجرائها غير محصورة في طريق مُعّين، فاختيار الطريق المُعيّن باقٍ على الأصل من الإباحة والجواز كما هو القاعدة في كل ما لم يرد نص بنفيه أو إثباته، غير إنا إذا نظرنا إلى الحديث الشريف الذي رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو (كان النبي عليه الصلاة والسلام يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يُؤمر فيه، وكان أهل الكتاب يسدلون أشعارهم، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، فسدل النبي ناصبته، ثم فرق بعد)، ندب لنا أن نوافق في كيفية الشروى ومناصحة أولياء الأمر الأمم التي أخذت هذا الواجب نقلاً عنا وأنشأت له نظاما مخصوصاً متى رأينا في الموافقة نفعاً ووجدنا منها فائدة تعود على الأمة والدين، وإلا أخترنا من الكيفيات والهيئات ما يُلائم مصالحنا ويطابق منافعنا، ويُثبت بيننا قواعد العدل وأركانه، بل وجب علينا إذا رأينا شكلاً من الأشكال مجلبة للعدل أن نتخذه ولا نعدل عنه إلى غيره...".

٣- محاربة الاستعمار وإثارة الحميّة الوطنية في نفوس الشعوب المستذلة التي غلبت على أمرها وقادها ملوكها وزعماؤها إلى الدمار، بينما العدو يتربص بهم الدوائر، وقف الأدب النثري يصرخ في هذه الشعوب صرخات مُدويّ علها تفيق من سُباتها وتنهض لمحاربة عدوّها.

٤- السعي في إصلاح المفاسد الاجتماعية كالفقر والجهل ومفاسد الحضارة الأوربية التي أخذت تغزو البلاد منذ عهد إسماعيل، لقد جهد المصلحون والمفكرون أن يُنيروا للأمة سبيلها ويبصروها عواقب الجهل والكسل والتواكل ونقائص اجتماعية كثيرة كي تقلع عنها[١].

وفي الوقت ذاته ظلت إلى جانب هذه الموضوعات السياسية والاجتماعية موضوعات أدبية وإخوانية من وصف وتعزية وتهنئة.. الخ.

الفنون:

أما ما يتعلق بفنون النثر، فقد شهد النثر العربي الحديث بتأثير الإطلاع على الآداب الأوربية وشيوع الصحف، فنوناً وأجناساً نثرية جديدة لم تكن معروفة فيه من قبل، وهي المقالة والقصة والمسرحية، وبتفعيل الكلام على طبيعة وخصائص وأعلام هذه الفنون الجديدة في الفصول القادمة.

والى جانب هذه الفنون الجديدة، نشطت الخطابة وازدهرت ولاسيما الخطابة السياسية، وهذا يعود إلى عدّة عوامل منها التأثر بالفكر السياسي الغربي، وما وصلّ إليه من مبادئ في الحريات والحقوق السياسية، والتأثر بالظروف السياسية للبلاد الناجمة عن الحكم السيء واحتلال الأجنبي، وتأسيس الأحزاب السياسية التي أخذ كل منها يدعو لنفسه عن طريق الخطباء، وأشهر الخطباء السياسيين الذين ظهروا في مصر مصطفى كامل وسعد زغلول.

كذلك استجدت خُطابة لم تكن معروفة من قبل، أعني الخطابة القضائية المتمثلة في الخطب التي يلقيها المُحامون والمدّعون العامون في ساحا المحاكم، وقد جاءنا هذا اللون من الخطابة نتيجة لتأثرنا بنظام القضاء الحديث الذي عرفه الغرب في العصر الحديث[٢].

أما ما طرأ على النثر، بالمعنى العام الذي يعني الكتابة والتأليف، من تطور وتغيير، فقد أوضحه جرجي زيدان على الوجه الآتي:

١- سلاسة العبارة وسهولتها بحيث لا يتكلف القارئ أعمال الفكر في تفهمها.

٢- تجنب الألفاظ المهجورة والعبارات المنسجمة، إلا ما يجيء عفواً ولا يثقل على السمع.

٣- تقصير العبارة وتجريدها من التنسيق والحشو، حتى يكون اللفظ على قدر المعنى.

---

[١] في الأدب الحديث. جـ١، ص٣٠٤-٣١٧.

[٢] الأدب العربي المعاصر في مصر: ص٢٠٤

٤- ترتيب الموضوع ترتيباً منطقياً في حلقات متناسقة يأخذ بعضها برقاب بعض وتنطبق أوائلها على أواخرها.

٥- تقسيم الموضوعات إلى أبواب وفصول، وتصدير كل باب أو فصل بلفظ أو عبارة تدل على موضوعه.

٦- تذييل الكتب بفهارس أبجدية تسهل البحث عن فروع الموضوع الأصلي، وقد يجعلون للكتاب الواحد عدّة فهارس: فهرس للموضوعات وثان للأعلام وثالث لغير ذلك.

٧- تنويع أشكال الحروف على مقتضى أهمية الكلام، فيجعلون للمتن حرفاً وللشرح حرفاً، وللرؤوس حرفاً.

٨- تسمية الكتب باسم يدل على موضوعها كتسمية كتاب تاريخ مصر بتاريخ مصر، وكتاب الكيمياء بالكيمياء، وكتاب النحو بالنحو، وأبطلوا التسجيع في أسمائها.

٩- يزينون المؤلفات بالرسوم، ويضبطون الألفاظ بالحركات عند الاقتضاء.

١٠- إذا أرادوا إسناد الكلام إلى كتاب أو كتاب أشاروا إلى ذلك في ذلك في ذيل الصحيفة.

١١- يفصلون الجُمل بنقط أو علامات يدلون بها على أغراض الكاتب، كالوقف والتعجب والاستفهام أو نحو ذلك، وعلامات لحصر الجميل المعترضة أو تمييز بعض الأحوال[1].

[1] تاريخ آداب اللغة العربية، ج٤، ص٦٠٧-٦٠٨.